

خصائص لغة الكتابة النثرية عند الأمير عبد القادر

زهرة بن يمينة⁽¹⁾

مقدمة

تعدّ اللغة أحد أهمّ عوامل التّواصل بين الأفراد، فهي عنصر اجتماعيّ حاملٌ لتراث الجماعة وفكرها، وتحدّد مجموعة القيم والمفاهيم التي يكتسبها الفرد في المجتمع نسقا لغويًا خاصًا يكشف عن الفكر المنتج، فحدود العلاقة بين اللغة والفكر لا تقف عند حدّ التّأثر والتّأثير فقط، بل تتجاوز ذلك إلى حدّ التّكامل الذي يحقّق الهوية والوجود الإنسانيين "إنّ اللغة تمثّل الحلقات الدّفينة للثقافات الاجتماعية، وفق بنويّة دلاليّة تبرهن على المنطوق في بنية الخطاب وملفوظه، وهذا يأتي بمستويات الوعي للدلالة من خلال عمق النص" (مناف علاء هاشم، 2011م، ص. 164). ويظلّ الحكم على أهميّة الأثر الأدبي مرهونا بتركيب اللغة والمؤثرات الثقافية التي تحملها، والقضايا الفكرية التي تنوي البرهنة عليها.

تعريف النثر لغة واصطلاحا

تختلف لغة التّعبير من الشّعور إلى التّثر نظرا لاختلاف القوانين الدّاخلية المنظّمة لكلّ فنّ، ويعتبر التّثر أكثر أنواع الكتابة تعبيرا عن الأفكار لما يعرفه من انفلات من الضّوابط التي تُعرف في الشّعور، والرّجوع إلى المعاجم العربيّة يحيلنا على كثير من الخصائص الفنيّة للتّثر "نثرُك الشّيء بيدك ترمي به متفرّقا، التّثر هو الكلام الذي لا يتقيّد بوزن وقافية، وهو أساس الكلام وجلّه، وقال ابن وهب "والمنثور هو الكلام" وعزّفه ابن سنان بحدّ الكلام" الكلام عندنا ما انتظم من هذه الحروف التي ذكرناها أو غيرها" وقال ابن

⁽¹⁾ Université Abdelhamid Ibn Badis, 27000, Mostaganem, Algérie.

خلدون" هو الكلام غير الموزون" ووضعه إزاء النظم وقد يطلق عليه اسم المنثور... والنثر هو الأصل في الكلام ولم تتكلم العرب إلا به، وهو أسبق من الشعر" (مطلوب، 2001، ص. 422) وهو أيضا: "الشكل المعتاد للغة لمنطوقة والمكتوبة، وينطبق مصطلح النثر على كل التعبيرات التي ليس لها نسق قد يكون إيقاعيًا منتظما" (ابراهيم فتحي، 1986م، ص. 366).

مع غياب الضوابط الإيقاعية، يبقى النثر محتفظا ببعض الخصائص التي تجعله ينقسم إلى نثر فني ونثر عادي، ويدخل ضمن إطار النثر الفني الأنواع الأدبية التي تحتكم إلى الإيقاع والأوزان الصرفية والنحوية، كالذي نجده في الخطب والمواعظ والقصص التي تعتمد أساليب الإقناع والترغيب، لذا يعد اعتمادها على بعض الأساليب الفنية طريقا مهما لتبليغ الفكرة.

الواقع الثقافي للجزائر في أواخر العهد العثماني وبداية الاستعمار الفرنسي

النثر الجزائري

يتأثر فنّ النثر كغيره من الفنون بمجموع التغيرات الثقافية والأدبية والسياسية، لذلك تتغير أنواعه من عصر إلى عصر، كما تعرف بعض الفنون النثرية ممارسة وإقبالا أكثر مقارنة مع غيرها، نظرا لحاجة الناس إليها¹. والنثر الجزائري تأثر بالعوامل سابقة الذكر، إذ تعتبر فترة التواجد العثماني وبداية الاستعمار الفرنسي - وهي الفترة التي عاش فيها الأمير عبد القادر الجزائري - مترجمة عن مرحلة مهمة من مراحل حياة النثر الجزائري، فقد أجمع معظم المؤرخين على ضعف الفنون النثرية في تلك الفترة وأرجعوا السبب لعدة عوامل منها: "أنّ معرقلات نموّ اللغة وانتشار الأدب كانت من أقوى المشجّعات، فالولاة كانوا لا يفقهون العربية ولا يتدوّقون أدبها، ولا نتوّع ممّن هذه حالته تشجيع الأدباء والشعراء وتدوّق إنتاجهم وتقديره... بالإضافة إلى ضعف مستوى الثقافة وإلى منافسة اللغة التركية ومزاحمة اللهجات للغة العربية إلى جانب نشاط الفئة المثقفة قد انحصر نشاطها في بعض الوظائف الرسمية التي لا علاقة لها بالأدب وتدوّقه وتشجيعه" (أبو القاسم سعد الله، 1998م، صص. 171-172) لذلك تحدّدت أهمّ فنون النثر في الخطب

¹ لقد عرف عصر صدر الدعوة الإسلامية اهتماما بالخطبة كفن نثري بسبب غايتها التي تلهب الحماس في نفوس المسلمين، كما عرف هذا العصر انتشارا كبيرا لفنّ الرسائل التي عُدت كوسيلة للتواصل بين الإمارات والجيوش والدولة آنذاك.

الدِّينِيَّة والرِّسَائِل التي نبع فيها الولاية والمُتَّسِلون، لكن هذا لم يبلغ تلك الخصوصيَّة الدِّينية للتَّوجُّه العام الذي طبع مختلف التَّوجُّهات في ميدان التَّأليف لأنَّ القرآن مثل منبع العلوم الشَّرعيَّة والعقليَّة. قد لا يكون هذا المقام مقام عرض تاريخي لتاريخ النَّثر الجزائري، ولا مستوفيا لذلك، لكن التَّنطُرُق إلى الحالة العامَّة التي كان عليها قد يساعد على تبيُّن الواقع الثَّقافي الذي كان عاملا غير مباشر في نشأة تجربة الكتابة عند الأمير عبد القادر.

التَّصَوُّف

إنَّ البحث في المعاجم العربيَّة يحيلنا على دلالات مختلفة، منها ما يدلُّ على أصالة التَّصَوُّف في الفكر العربي "تَصَوَّفَ، تَنَسَّكَ أو ادَّعاهُ، وآلُ صوفان كانوا يخدمون الكعبة ويتنَسَّكون، ولعلَّ الصَّوْفِيَّة نُسبت إليهم، تشبها بهم في التَّنَسُّك والتَّعَبُّد، أو إلى الصَّفَّة فيقال مكان الصَّفية بقلب إحدى الفائين واوًا للتَّخفيف، أو إلى الصَّوْف الَّذِي هو لباس العباد وأهل الصَّوامع. والأخير هو المشهور" (الرَّيْدي، 1987م، ص. 42) وغير بعيد عن هذا نجد صاحب التعريفات، (الجرجاني)، قد ربط التَّصَوُّف بالأخلاق وجعله من متمات النَّفس البشريَّة في رحلتها إلى الكمال "التَّصَوُّف الوقوف مع الآداب الشَّرعيَّة ظاهرا فيرى حكمها من الظَّاهر في الباطن، وباطنا فيرى حكمها من الباطن في الظَّاهر، فيحصل للمتأدِّب بالحكمين كمال، والتَّصَوُّف كلُّه جدَّ فلا يخلطوه بشيء من الهزل، وقيل تصفية القلب عن موافقة البريَّة ومفارقة الأخلاق الطبيعيَّة ومجانبة الدعاوى النَّفسانيَّة ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة" (الجرجاني، 1306هـ، ص. 28) وهذا يعني صلة هذا العلم بالثقافة الإسلاميَّة وعدم اعتباره دخيلا عليها، أمَّا الموسوعيون المتأخرون أمثال عبد الرحمن بن خلدون (ت808هـ)، لم يدرجوه ضمن العلوم الأصليَّة في الثَّقافة الإسلاميَّة على الرغم من منهجه الأخلاقي "هذا العلم من العلوم الشَّرعية الحادثة في الملة، وأصله أنَّ طريقة هؤلاء القوم لم تزل عند سلف الأمة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم، طريقة الحقِّ والهداية، وأصلها العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها، والرَّهْد فيما يقبل عليه الجمهور من لذَّة ومال وجاه" (ابن خلدون، 2012م، ص. 432)، وقد تلقَّى علماء الجزائر هذا العلم من المشرق العربي، لأنَّ علماء أصحاب السَّبِق في نشأته وسنَّ قواعده.

لقد كثرت الطَّرُق الصَّوْفِيَّة في الجزائر أثناء الوجود العثماني وبداية الاستعمار الفرنسي، لأنَّها أدت دورا هامًا في الدِّفاع عن الظَّلم، ورغم تعدُّ مدارسها توحدت أهدافها في الدِّفاع

عن المسلمين "ولو اردنا أن نقرأ المقاومة الجزائرية بين (1840 إلى 1848م) قراءة سياسية عصرية لوجدناها قد سارت تحت قيادة أحزاب ثلاثة وهي : حزب القادرية وحزب الدرقاوية وحزب الرحمانية وكلها أحزاب ظهرت في الريف لا في المدن، هذه الأحزاب تجاوزت في برنامجها الدين إلى السياسة والإخوان إلى المواطنين" (سعد الله، 1992م، ص. 297)، لعلّ ظهور هذه الطرق والزوايا في الريف لا في المدن جعلها ناجحة أكثر، لأنّ معظم الجزائريين قد التفوا حولها ونهلوا من تعاليمها، حتّى كادت تنسب إليها نجاح المقاومة الجزائرية، وسبب هذا النجاح راجع لاعتبار التّصوّف يعمل على نقاء السريرة وإخلاص الأعمال لله وحده، والابتعاد عن زخرف الحياة الدنيا وهو السبب الذي جعل الجزائريين وقها يلتقون حول المقاومة.

تجربة الكتابة عند الأمير عبد القادر الجزائري (1222-1300هـ/1807-1882م)²

المؤثرات الثقافية الإسلامية في تجربة الكتابة عند الأمير عبد القادر

لقد تشبّع الأمير عبد القادر بثقافة إسلامية صافية المنبع أول مصدر لها القرآن الكريم والمحيط العائلي الذي أخذ على عاتقه تربية أبنائه على المنهج الإسلامي القويم، من حفظ للقرآن الكريم وأصول الفقه والحديث النبوي الشريف، حتّى أنه عدّ جامع للحديث الشريف في العصر الحديث (محمد حسني الجزائري، Djelfa.info.) وقد حظي الأمير عبد القادر وهو ابن عائلة شريفة بنصيب من العلم والثّقافة أهّلته ليصير فيما بعد من دعاة هذه الأمة وأحد أهمّ مؤسسي الدولة الجزائرية الحديثة، وقد كان لحفظ القرآن الكريم ودراسته دورا جوهريا في توجيه ثقافة الأمير إلى الاتجاه الإسلامي الذي طبع جلّ مؤلفاته في

² الأمير عبد القادر هو ابن معي الدين بن مصطفى بن محمد بن مختار بن عبد القادر المشهور بن خدة بن علي بن عبد القوي بن خالد بن يوسف بن أحمد بن بشار بن بشار بن مسعود بن طاووس بن يعقوب بن أحمد بن محمد بن الحسن السبط بن علي وأمه فاطمة الزهراء بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم"، عبد الكريم الفيالي (2006م)، التاريخ السياسي للمغرب. (ط. 1). القاهرة : شركة تاس للطباعة، 20 أغسطس، (ج5)، ص. 70. وتذكر بعض المصادر أيضا أنّه رحل إلى دمشق مع الأسر الجزائرية التي رحلت إلى سورية بعد نفي والده الأمير إلى طولون، وكان يحمل رتبة "فريق" في الجيش العثماني، مات بالأستانة. له : تحفة الزائر في تاريخ الجزائر ومآثر الأمير خالد، وعقد الجياد في الصافنات الجياد، ونخبة عقد الجياد، وثلاث رسائل: الأولى في ذكرى ذوي الفضل في مطابقة أركان الإسلام للعقل، والثانية : كشف النقاب عن أسرار الاحتجاب، والثالثة : الفاروق والترياق في تعدد الزوجات/ عادل نويهض، (1980م-1400هـ). معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر. (ط. 2). لبنان-بيروت: مؤسسة نويهض الثقافية، ص. 110.

الكتابة النَّثْرِيَّة، وأهمّ تجلّيات هذا الاتّجاه تظهر في التّصوّف والتّرسل والفلسفة والوعظ والإرشاد، وقد حظيت المكتبة الجزائريّة بمؤلّفات ثريّة في النَّثر العربي كانت أهمّها: كتاب المواقف في التّصوّف والوعظ والإرشاد، والمقراض الحاد لقطع لسان الطّاعن في دين الإسلام بالباطل والإلحاد، ومجموعة الرّسائل، وقد تميّز كلّ مؤلّف بخصائص لغويّة وأسلوبية وفكريّة مختلفة، لكن تبقى لها قيمتها الحضاريّة" والأمير عبد القادر مؤلّف هذه المجموعة من الكتب، الّتي ضمّتها أفكاره العلميّة والدينيّة دليل على تاريخ الجزائر الثّقافي في ذلك العصر الّذي تُصوِّره المدرسة الاستعماريّة وكتّابها على أنّه عصر الزّوايا والطّرق الصّوفيّة" (الحسني الجزائري، 1421هـ-2000م، ص. 68) وقد يفضي البحث والدّرس في هذه المؤلّفات إلى استخلاص مجموع القيم الحضارية والفكرية لهذا العلامة الفذ.

كان للجانب الصّوفي أثرٌ واضحٌ في شخص الأمير المجاهد، إذ انعكس على مؤلفاته بشكل واضح فراح يطرح القضايا من جانب عرفاني روحي، يتسامى عن المادّة ويرنو إلى التّركية والنّقاء، وأصوله الصّوفيّة تشهد له بها الكتب التاريخيّة" فالرجل شريف من آل هاشم ومن آل البيت، أو المحتد العربي والنسب النبوي وهو من طريقة صوفية ذاع صيتها في المغرب والمشارك منذ قرون، طريقة عبد القادر الجيلاني التي تكاد تستسقي منها كلّ الطّرق الصّوفيّة الأخرى، وهو حاج البيت المعمور وزائر قبر الشيخ المذكور، وهو المأمور من صحراء الشام بالعودة إلى وطنه أنّ أمرا خطيرا كان ينتظره هناك حسب كرامة الأولياء" (الحسني الجزائري، 1421هـ-2000م، ص. 68)، وقد عرفت تجربته الصّوفيّة مراحل مهمة، فهي لم تستقر على طريقة واحدة وإنّما طفتت تهل من التراث الصّوفي الذي امتدّ تأثيره في الثقافة الجزائرية بحكم العوامل الجغرافيّة والتاريخية والثّقافية التي ربطت الجزائر بالشرق العربي، رغم ما سعى إليه الاستعمار في محاولة عزل الجزائر عن باقي دول العالم ومسح ثقافتها وأصولها" وتنقسم حياته الصّوفيّة إلى ثلاث مراحل، المرحلة الأولى هي المرحلة التي سافر فيها إلى دمشق مع والده وأخذ عن علماءها وتلقّى الطريقة النّقشبندية عن الشيخ خالد النّقشبندي، والطريقة القادرية التي تلقاها في بغداد عن الشيخ محمود الكيلاني القادري، وبعد ذلك رجع إلى الجزائر فأنشأ مراكز في القرى، كان هؤلاء هم الذين غدّوا حركة الجهاد التي قام بها الأمير فيما بعد. أمّا المرحلة الثّالثة تمّ فيها التّركي الصّوفي، وصل فيها إلى مجاورة مكة المكرمة" (أباضة، 1414هـ-1994م، ص. 29) وتجدر الإشارة إلى أنّه رغم هذا التعدّد في الطرق الصّوفيّة، إلا أنّ سمة الوسطيّة بقيت راسخة بتعدد كثيرا عن الغلو والتطرف والبدع الذي عُرف عند باقي الطرق الصّوفيّة الأخرى.

تظهر ملامح التصوّف في كثرة نُقول الأمير عن المتصوّفة وتأييدهم في آرائهم، وأكثر ما استشهد به هو آراء محيي الدين بن عربي (ت 543هـ)، فقد تكلم الأمير بالكثير من المسائل التي أوردتها في الفتوحات المكيّة وأيده فيها، بل وجعله من أصحاب الولاية كما ورد في قوله: "فمن الأقطاب من يكون على قدم عيسى وموسى ونوح وإبراهيم وصالح وغيرهم من الأنبياء، وليس في الأقطاب من هو على قدم محمد -ﷺ- بأن يكون وارثا له -ﷺ- وإنما يكون على قدمه بعض الأفراد، والشيخ الأكبر محي الدين منهم، وهو خاتمهم. فليس بعده وارث محمدي" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 872) ونقل أيضا عن الحلّاج وعبد الكريم الجيلي، واعتمد منهج هؤلاء الصوّفيّة على البرهنة على وجود الله بالدلائل العقلية والقلبية، واعتماد سبل المجاهدة والترقي الروحي.

كتاب المواقف وتجربة التصوّف والفلسفة والحكمة

دلالة المواقف

نال كتاب المواقف للأمير عبد القادر شهرةً علميةً أهلته لأن يحظى بقبول وافر من قبل الدارسين، وعنوانه المواقف دليل على تأثير صوفي شرقي³، فالوقففة حالة تظهر للعارف وفيها تتجلّى له كشوفات من عالم الغيب تسافر به، والوقففة أو المواقف جزءٌ من الرمزية وتغيير في تلقي النص الصوّفي "يكون الشكل التعبيري الذي اختاره الصوّفيّة كالتفري لتأسيس هذا الأفق نوعا أدبيا جديدا تحول فيه نص المناجاة العرفاني التقليدي الذي كان مجرد متتاليات دعائية، تعبيرا عن معان دينية وأخلاقية وذا اتجاه واحد : من أنا إلى أنت (الله) وسماها القدماء : حديث النفس إلى حديث حوارى الشكل في شكل محادثة فيها تبادل تخاطبي وإن كان المتكلم هو نفسه المخاطب" (زايد، 2011م، ص. 210) وكل هذا التحول قد ترجمه الأمير من خلال تفسير آيات الله من منطلق الوقفة. يروي الأمير موقفه مع الله عز وجل في تلقيه لآية عن طريق الوحي لقوله تعالى ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ (سورة الأحزاب، الآية 21).

إذ يقول: "هذه الآية تلقيتها تلقيا غيبيا روحانيا، فإن الله تعالى قد عودني أنه مهما أراد أن يأمرني أو ينهاني أو يبشرنى أو يحذرنى أو يعلمني علما أو يفطيني في أمر استفيته فيه، إلّا ويأخذني مئى مع بقاء الرّسم، ثمّ يشير إليّ ما أراد بإشارة آية كريمة من القرآن، ثمّ يردني إليّ

³ يذكر في هذا المقام، مواقف النفري، والحلاج وأبو حيان التوحيدي.

فأرجع بالآية قرير العين، ملأن اليدين ثم يلهمني ما أريد بالآية وأتلقى الآية من غير حرف ولا صوت ولا جهة، وقد تلقيت والمنة لله تعالى نحو النصف من القرآن بهذا الطريق" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 21)، ولا تقف حدود تلقي القرآن عند الأمير عبد القادر عند هذا المستوى، بل إن من الحالات من يندرج ضمن اتحاد العارف بالله في تلقي المعارف الغيبية في قوله: "أخذني الحق مني، وقرّني مني، زالت السماء بزوال الأرض، وامتزج الكلّ ببعض، وصار التفل إلى الفرض، وانتهى السير، فانطفئ الغيّر، وصحّ النسب بإسقاط الإضلافات والاعتبارات... ثم قيل لي مثل قول الحلاج، غير أنّ الحلاج قالها وأنا قيلت لي ولا أقولها، وهذا الكلام يعرفه أهله ويجعله وينكره من عاب جهله" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 38) وبناء على هذا، نستشفّ مظاهر التفسير الإشاري الخاضع للموافقة اللسانية السائدة، فقد تداخل عند الأمير اللغة والتجربة الذاتية التي أنتجت فيما بعد الخبرة الصوفية الخاصة به، فالتفسير المتقدم نابع من وحي تجربة ذاتية تأملية، يختلف حتما عن عمل متصوّف لآخر، ولعلّ هذا السبب الذي يجعل المعرفة الصوفية غير علمية بل تتغير بحسب مشاهدة المتصوف ودرجة تجلي الحقائق له.

اللغة الواضحة والتأويل المعتدل

يرتبط التأويل بالتصوّف ارتباطاً وثيقاً بسبب اتساع المعنى في هذه التجربة، والتأويل كما هو مصطلح عليه "هو مرادف التفسير، وقيل هو الظنّ بالمراد والتفسير القطع به، فاللفظ المجمل إذا لحقه البيان بدليل ظنيّ، كخبر الواحد يسمى مؤوّلاً، وإذا لحقه البيان بدليل قطعي يسمى مُفسّراً، وقيل هو أخصّ من التفسير" (التهانوي، 1996، ص. 377) والتأويل كما هو في كتاب المواقف يحتكم إلى مرجعيات دينية مضبوطة أهمّها البرهنة بالحديث النبوي الشريف وأقوال الصالحين ومواقفهم. ففي قوله تعالى ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِدُنْيِكَ﴾ (سورة غافر: الآية 55) و﴿وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّاباً﴾ (سورة النصر: الآية 3) موضوع مشترك بين الآيتين وهو الاستغفار الوارد بصيغة الأمر للمخاطب الدال على المفرد وهو النبي ﷺ - وهو أمر يحمل بعض الالتباس فيما يتعلق باستغفار الأنبياء، وقد أوّله الأمير بقوله: "لا يقال الرسل-علمهم الصلاة والسلام- معصومون من المعاصي، فكيف أمروا بالاستغفار؟ لأننا نقول: استغفار الأنبياء ليس هو من مفارقة الذنوب والمخالفات كغيرهم، وإنما استغفارهم: بمعنى طلب الغفر، وهو السّتر عن المخالفات، والحيلولة بينهم وبينها فلا يلابسونها. وهو استغفار خاصة الخاصة، المشار إليه في دعاء الملائكة

بقولهم: ﴿وَقِيمِ السَّيِّئَاتِ﴾ (سورة غافر : الآية 9). والثاني : استغفار الخاصّة وهو طلب الغفر والسّتر، بمعنى عدم الفضيحة، وإذا انتفت الفضيحة بالذّنب، انتفت المؤاخذة لا محالة" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 817)، فالأمير قد وظّف التّأويل خدمة منه للمعنى ولم يرم من خلاله إذاعة التّفسير الباطني المنافي لتعاليم الإسلام وللمدرسة الباطنيّة التي عُرفَ عنها المغالاة في التّأويل.

في مواقف عديدة من تفسير القرآن الكريم، نجد الأمير يحدّد منهجا واضحا يبدأ من الفهم النّحوي الذي هو حالة الفهم الأولى، ثمّ يستتبع ذلك بتفسير الآية بوحى ما يظهر لها من معناها. وفي أكثر مواقف الأمير نجد مباشرة اللّغة وهو أمر طبيعي راجع لطبيعة المدرسة الصّوفيّة التي تأثر بها والتي تعتمد نمطا خاصّا وتحقق هدفا محددًا أيضا" نمط النّصّ الصّوفي الذي تتسم لغته بالبساطة والمباشرة لا يستخدم دائرة اللّغة الصّوفيّة بل يعتمد على نقل الدلالات العرفانيّة من خلال اللّغة المتعارف عليها تداولا، أو من المعجم الديني ويتميز هذا النص بوضوح الفكرة والأسلوب وترابط الدلالات في السّياق النّصي بشكل منطقي أو أدبي مفهوم، لا يحتاج إلى وسيلة تأويليّة لبلوغ غاية الفهم ونجد هذا واضحا في التّصوّف السّنيّ" (زايد، 2011م، ص. 223) وهو المنهج الذي نكاد نلمسه في كتابة الأمير التي تزواج بين اعتماد الحجج العقليّة والتّجربة الدّوقيّة.

اللّغة الفلسفيّة في المواقف

تداخلت الأنساق المعرفيّة في تجربة الكتابة عند الأمير عبد القادر، فأنتجت التّفسير والتّصوّف والفلسفة الإسلاميّة القائمة على قياسا لشّاهد على الغائب. ولقد كان الأمير من الفلاسفة الذين برهنوا بأنّ للعالم صانعا بالأدلة العقليّة والطبيعيّة الكفيلة بالدلالة على ذلك، وهذه التّجربة هي إيذان بفتح الأفق أمام النّصّ الديني - القرآن الكريم - بل هي محاولة لتّجديد الوعي بالنّصّ، ودرء التعارض بين القرآن والفلسفة يتمّ عبر فكّ شفرة اللّغة وخلق سبل التّأويل العقلاني المرتكز على دعامة ثقافيّة سليمة، وقد كانت اللّغة أهمّ عامل ساهم في نجاح فكر الأمير الفلسفي، كونها تخطّت العتبة الموضوعيّة سلفا بين اللّغة وباقي العلوم فقد "بانت الفلسفة النّاطقة بالعربيّة تستعمل إذا لغتها بغاية الإتقان والمرونة نتيجة التجربة العقليّة التي اكتنفت الشّروحات والتّعليقات على كتب اليونانيين والتي تلت تجربتهم الحسيّة التي تميّزوا بها، فكانت المعاني تخرج عندهم من الأخص إلى الأعمّ، ومن

الأعمّ إلى العام، ومن العام إلى الأشمل، محيطة بكلّ دقائق التحليلات الطّبيعية منها والمنطقية والعلمية والإلهية" (جهامي، 1994م، ص. 57).

إنّ حضور اللّغة الفلسفيّة في المواقف أمر نستشقه من خلال المصطلحات الفلسفية الدقيقة الواصفة لهذا العلم، أي أنّ المنهج العلمي قد توقّر في تأليف الأمير منذ وقت مبكر، وطفى عليه القياس والمنطق والاستدلال، ويكفي دليلا على هذا أنّ فصولا من هذا الكتاب سميت باسم عناصر الطبيعة، مثل : فصل في الأرض، فصل في الماء، فصل في الهواء، فصل في ركن النار...، وتحليل هذه العناصر الطبيعيّة إنّما استقى منهجه وبراهينه من القرآن الكريم، إضافة إلى اتّباع المنهج الاستدلالي الذي يُحصي نتائج المقدمات ويقيم براهين عليها، فالأمير قد ضبط الألفاظ بوضعها وفقا لوظائفها وتدرجاتها، والبحث في مراتب النفس مثلا، اقتضى منه الإحاطة بهذا العلم كالتذكير بخصائص النفس ووظائفها وأقسامها، وتعداد القدرات العقلية الأخرى مثل الإدراك، وعندما يصل إلى باب المكوّنات الطبيعيّة، فإنّه يقرّر طبيعتها وحكمة سيرها على نظام معيّن، إذ يقول واصفا عنصر النار : "ثمّ خلق الله بعد الهواء ركن النّار، المسّى عند الحكماء الأثير. وهو حارّ يابس محيط بكرة الهواء، خلقه الله -تعالى- مواليا لسماء الدّنيا، لتقابل حرارته برودة السماء الدّنيا، فيندفع عن المولّدات في الأرض ضرر بردها. وهذا الرّكن الأوّل ركن قبل الأثير : لما دارت الأفلاك وأعطت الاستحالة في الأركان. وفي هذا الركن تحدث المجوم ذوات الأذنان ومادة تكوينها" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 688) واستكمل الأمير الأمر نفسه مع عناصر الطبيعة الأخرى، ثمّ أفرد فصولا في خلق السموات والأرض، وفي قوله تعالى ﴿آتِيَا طُوعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (سورة فصلت : الآية 11) يفسّر حركة الكواكب في قوله "هما آتيان أبدا، فلا يزالان متحرّكتين حركة خفيفة، إلّا أنّه في كلّ سماء فلكّ، وهو الذي تحدّثه سباحة كوكب ذلك السماء. فالكواكب السيارة تسبح في أفلاكها. والأفلاك لولا سباحة الكواكب ما ظهر لها عين في السموات" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 692)، كما فصّل الأمير في أشكال الأجسام ومسمياتها ولم يترك أمرا متعلّقا بفلسفة الأجسام إلّا وفصّل فيه، وهذا دليل على أنّ الكتاب الجزائريين وقتها - والأمير عبد القادر واحد منهم - كانوا على اطلاع بتطور فنون النثر الفنيّ الذي مزج بين التّصوّف، وانتهى بدوره إلى مصطلح التّصوّف الفلسفي، وأتبعوه بمنهج معيّن يقتضي نظاما معينا ممثّلا في طرح التّساؤلات الجدلية، وتوليد الألفاظ وتحديثها كما هو الأمر عند الأمير عبد القادر الجزائري.

الوعظ والإرشاد

أثرت الثقافة الإسلامية التي تلقاها الأمير على نتاجه الفكري، فكانت آثاره حاملة للتصوّف والتفسير وللوعظ والإرشاد، هذان الأخيران اللذان يُعتبران عنصران فنيان أدبيين حضرا بجلاء في كتابات هذا العلامة الجزائري الفذّ، وقد سار الوعظ والإرشاد إلى جنب التصوّف كونه أحد مرتكزاته. ووجّه الأمير من خلاله نظر المسلم إلى ضرورة التحلّي بالصّفات التي نزل بها القرآن الكريم، وجعل لكلّ آية مناسبة مع خُلق حميد يدعو إليه، أو ترهيبا عن آخر ذميم ينهى عنه، ففي فضل الصّبر وحكمة قضاء الله وقدره يقول: "لابدّ للنفوس من التألّم النَّفساني الطّبيعي، ولا تقدر على دفعه إلا إذا طرقها حال غالب قاهر يغنيها عمّا به تتألّم، كما يغنيها عمّا به تتلذذ، ولكن التألّم النَّفساني الطّبيعي لا يقدر الإنسان على دفعه، بكت الأكبر وتأوهت، وأنت واستغاثت، وسألت رفع الآلام، بخلاف التألّم الرّوحاني فإنّ الإنسان يقدر على دفعه، ولهذا ترى الأكبر مبتهجة في بواطنها، مسرورة راضية واثقة بحسن اختيار الله تعالى لها" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 488). كما لا يفتأ الإمام يذكر القارئ له بحقيقة هذه الدنيا وضعة منزلتها، ويذكره بحقيقة الدار الآخرة.

من متمّمات المنهج النَّصح والإرشاد لازم الأمير وصف النفوس وطبائعها حتى تتبيّن حقيقتها قبل وقوفها بين يدي ربّها، بأسلوب يعتمد على المقارنة والبرهنة، ففي قوله تعالى ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّاتٍ﴾ (سورة الرحمن : الآية 46)، يستعرض أحوال النفوس ودرجات خوفها من الله عزّ وجلّ في قوله: "اعلم أنّ العباد على قسمين : أشقياء وسعداء، والسعداء على قسمين أبرار أصحاب اليمين، ومقرّبون سابقون. فالأشقياء لاخوف عندهم، والأشقياء لهم خوف، وخوفهم نوعان : خوف الإجلال والتعظيم والمهابة، وهم المقرّبون السابقون، فإنّ الخوف منه تعالى على قدر المعرفة به، فمن كانت معرفته أتمّ، كان خوفه أتمّ، كان خوفه أكمل... ولما كان خوف الأبرار والمقرّبين مختلفا في النوعية ؛ كان جزاؤهما مختلفا في النوعية" (الأمير عبد القادر الجزائري، 1967م، ص. 496) واشتملت باقي مواضع الأمير وحكمه وإرشاداته في كلّ ما يتعلّق بالنفس وأحوالها وطبائعها ومعاملاتها مع غيرها من المخلوقات، حتّى يتحقّق أنموذج الإنسان الكامل الذي تهدف إليه التّربية الصّوفيّة الإسلامية السّديدة في المنهج والهدف.

الدِّفاع عن الإسلام وإثبات الألوهية في المقراض الحاد

تمجيد مرتبة العقل

عرف الإسلام منذ وقت مبكر حربا تهدف إلى هدم تعاليمه وقداسته، ويُحسب للمسلمين وللعلماء أجرهم في الدفاع عنه، وتاريخ الجزائر يشهد على العلماء الذين كرسوا حياتهم خدمة لهذا الدين الحنيف. ويعدّ الأمير عبد القادر واحدا من الذين حرّكهم غيرتهم تجاه هذا الدين، فكّرَسوا قلمهم لردّ الشبهات، وكان هذا من بين أسباب تأليف المقراض الحاد لقطع لسان الطاعن في دين الإسلام بالباطل. ووردت وأبواب هذا الكتاب منتظمة في مواضيعها، مُحْتَكِمَةٌ إلى لغة قويّة واضحة ممتنعة، تعتمد اللَّفظة القويّة والتصوير الفني الدقيق الذي يوضح الفكرة ويقنع المتلقي.

مَجَّدت الثَّقافة الإسلاميّة الإنسان وكرّمته واعتدت بالعقل وقدمته على جميع المخلوقات، وقد أقرّ هذا القرآن الكريم وعلى إثره علماء هذه الأمة ودعاتها فالأمير الجزائري قد استوفى شرح فضائله في كتابه المقراض الحاد، حيث يقول في أحد الفصول: "العقل منبع العلم ومطلعه وأساسه، والعلم يجري منها مجرى الثمر من الشجر، والنور من الشمس، والرؤية من العين، فكيف لا يُشرفُ من هو وسيلة للسعادة في الدنيا والآخرة" (الأمير عبد القادر الجزائري، ص. 10) وهذا ارتقاء بالإنسان من المراتب الحيوانية إلى المراتب العليا التي تتيح له التّفكّر والتّدبّر وإنجاز باقي العمليات العقلية الأخرى. وإذا كان هذا هو حال العقل، فإنّ الإدراك له من الأهمية التي تجعل الإنسان منتبها يقظا للمدركات الحسية المحيطة به، لكنّ درجته تتفاوت من إنسان لآخر وهذا هو علّة اختلاف الناس في مراتبهم، فشتان بين العالم والجاهل" اعلم أنّ العقول منها عقول إلهية قابلة لها حضرة القدس، كثيرة الحبّ لها، متوغّلة في درجات معرفتها، ومنها ما حصل لها شيء من هذه الأحوال، إلّا أنّها تكون ضعيفة. ومنها عقول ظلمانية خالية من الجواذب الإلهية، غارقة في بحر الجهل وظلمات الحسّ والخيال" (الأمير عبد القادر الجزائري، ص. 41).

إثبات وجود الإله بأثار صنعه

تأسّست الفلسفة الإسلاميّة على وحدة الدين وصحّة المنهج الذي يرجع الأمور إلى أصلها وعملها، وقد تسببت الحملات المتتابعة على الجزائر في نشوء حملات مغرضة تضرب عمق هذا الدين وتبشّر بالنصرانية، ذلك توجّه علماء الإسلام للبرهنة على وحدانية الله عزّ وجل بدلائل خلقه، والأسلوب المناسب لهذا هو الأسلوب الحجاجي المبني على الأدلّة والبراهين،

كلاستدلال بالكواكب والنجوم وحركتها، ولقد وضع الأمير فصولاً في كتابه المواقف سمّاها مثلاً: آيات الله في السماء، نور القمر ونور الشمس، عالم الأسباب... وبحث في حقيقتها وأسباب حدوثها وتأثيراتها، لذلك اتّسمت لغته بالعلمية في المنهج والطرح، واستعمال كلّ ما تعلق بالفيزياء والرياضيات وعلم الفلك والأبراج والجاذبية. حتّى أنّ المتأمل في هذه التراكمات يستدلّ على وعي فكريّ مبكّر تحدّى ظروف الاستعمار ومحاولة طمس الهوية الجزائرية.

في حديثه عن آيات الله في السماء يقول: "أمّا السّماء فيتفكّر العاقل وينظر في خلقها ورفعها بلا عمد، وإتّها في غاية الحسن والكمال ولو نظر فيها حتّى يعيل ويكلّ ويضعف، لما أطلع على نقص وعيب فيها لأنّه تعالى أتقن خلقها، وزين أفقها بالكواكب الثّوابت والسّيّارات، وفارق بين الشّمس والقمر في نورهما وفي شكلهما وفي وقتها وفي سيرهما" (الأمير عبد القادر الجزائري، ص. 70)، يلاحظ القارئ غلبة الأسلوب الأدبي الذي يعتمد على التّشبيه والمقارنة والتّصوير الفنيّ، ويعكس التّجربة الأدبية التي تطبع بطابعها الخاص أغلب الأنماط النثرية عند الأمير.

كان الردّ على دعاوى اليهود والنّصارى يعتمد على الأسلوب المباشر واللفظ الصريح، الذي لا يعتمد التّأويل حتّى لا تفهم الأمور على عكس حقيقتها، ففي ردّه على منكري المسبّب للأمر هو الله عز وجل، يعتمد الحجّة والدليل العقليين، وحتّى تقوى دعامة هذه الأفكار يلجأ الأمير عبد القادر في كلّ مرة إلى دعم أقواله بأراء المفسّرين والفقهاء، ويتكوّن بالتالي النّسق الثّقافي في فكر الأمير عبد القادر المكوّن من مجموع المعارف الإسلامية العربية التي تركت أثرها بوعي أو بغير وعي في فكر الأمير.

خاتمة

إنّ تناول مراحل مهمّة من حياة الأمير عبد القادر، الإمام العلامة الإمام والمجاهد، الذي حارب بلسانه وقلمه كلّ من حاول التّيل من هذا البلد والدين، هو عمل ينيّم عن استثماره لعدّة معرفيّة ألمت بكلّ صنوف الثّقافة العربية ومثريّة لمصادرها الأصليّة، لينتج بعد ذلك فكراً متكاملًا كان للتصوّف حظّ وافر فيه، فقد جمع كلّ قواعد التهذيب والتربية المعدّة لتكوين الإنسان، لأنّ هذا العلم من أساسيات المرحلة التي عاشتها الجزائر في ذلك الوقت لما له من دور في لمّ الشّمل وإيقاظ الوعي الجمعيّ من أجل وحدة الوطن، " في الرّؤية الصّوفية للإنسان والعالم تقاطعت وتنازحت ضروب من العلم مختلفة: التّوحيد والفقّه

والسنة والسيرة والفلسفة والأخلاق والنفس وقواعد السلوك والإمامة والسياسة والجهاد... فالوعي الصوفي تحصيل مركب لثقافة متعدّدة ممتدّة شاسعة الأنحاء، تباينت فيه الصور وتعدّدت النماذج إذ قام على أساس التجربة النفسية الفردانية الخالصة" (محمد زايد، 2011م، ص. 15).

ليس غريبا بعد هذا أن تشكّل تجربة الأمير في الجهاد نواة أساسية في تاريخ الثورة الجزائرية، وتتخلّد آثاره على مرّ السنين جامعة من كلّ صنوف العلوم والثّقافات، لتضيف إلى الجزائر جانبا مضيئا آخر من زعمائها الذين وحدوا الأمة باسم الدين والحرية.

بيبليوغرافيا

أباضة، نزار (1414هـ-1994م). الأمير عبد القادر الجزائري العالم المجاهد. (ط. 1). بيروت- لبنان: دار الفكر المعاصر، سورية: دار الفكر.

الأمير عبد القادر الجزائري، (1967م). كتاب المواقف في التّصوّف والوعظ والإرشاد. (ط. 2)، (مج. 2). دمشق-سورية.

الأمير عبد القادر الحسيني الجزائري، (د.ت). المقراض الحاد لقطع لسان منتقص دين الإسلام بالباطل والإلحاد. (محمّد عبد الله الخالدي المغربي، وتحق. تق.). بيروت-لبنان: منشورات دار الكتب العلميّة.

التّهانوي، محمد علي (1996). موسوعة كشاف مصطلحات العلوم والفنون. (ط. 1). (ج. 1)، (العجم رفيق، مرا دحروج علي، تح. ; نقله إلى العربيّة، الخالدي عبد الله)، بيروت- لبنان: مكتبة ناشرون.

الجرجاني، الشريف بن علي بن محمد (1306هـ). التعريفات. (د. ط.). مصر: المطبعة الخيرية. جيهامي، جبرار (1994م). الإشكاليّة اللغويّة في الفلسفة العربيّة- دراسة تحليلية نقدية. (ط. 1). بيروت: دار المشرق.

الحسيني، الجزائري، الأميرة، بديعة (1421هـ-2000م). فكر الأمير عبد القادر الجزائري حقائق ووثائق. (ط. 1). دمشق: دار الفكر للطباعة والتوزيع والنشر.

الحسيني، الزبيدي، السيد محمد، مرتضى (1987م). تاج العروس من جواهر القاموس. (ج. 24)، باب الفاء (حجازي مصطفى، تح.). الكويت: مطبعة الكويت.

- زايد، محمد (2011م). أدبية النص الصوفي بين الإبلاغ النفعي والإبداع النفعي. (ط. 1). الأردن: عالم الكتب الحديث.
- سعد الله، أبو القاسم (1992م). الحركة الوطنية في الجزائر (1830-1900م). (ط. 1). (ج2)، بيروت-لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- سعد الله، أبو القاسم (1998م). تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1830). (ط. 1)، (ج 2)، بيروت-لبنان: دار الغرب الإسلامي.
- عبد الرحمن بن خلدون، (2012). المقدمة. (د. ط.). (الاسكندراني محمد، تح.). بيروت - لبنان: دار الكتاب العربي.
- فتحي، إبراهيم (1986م). معجم المصطلحات الأدبية. صفاقس-تونس: المؤسسة العربية للناشرين المتحدين.
- فتحي، إبراهيم (د.ت.). معجم المصطلحات الأدبية. (د. ط.). تونس: التعااضدية العمالية للطباعة والنشر.
- محمد الجرجاني، الشريف بن علي بن محمد (1306هـ). التعريفات. (د. ط.). مصر: المطبعة الخيرية.
- مطلوب، أحمد (2001). معجم مصطلحات النقد العربي القديم. (ط. 1). بيروت - لبنان: ناشرون.
- نويهض، عادل (1400هـ-1980م). معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام إلى العصر الحاضر. (ط. 2). بيروت-لبنان: مؤسسة نويهض الثقافية.
- هاشم، مناف علاء (2011م). نظرية العقل العربي، الرؤية والمنهج في سلم الحضارات. بيروت-لبنان: مؤسسة ديمويرس.